دلالة اللون في الرواية العراقية مقاربة سيميائية في عتبتي العنوان ولوحة الغلاف

م.د.أحمد مجيد شاكر البصّام

جامعة الكوفة /كلية التربية الأساسية

م.د.علي عبد الرحيم كريم

جامعة ميسان/كلية التربية

الملخص/

عنوان البحث : دلالة اللون في الرواية العراقية ، مقاربة سيميائية في عتبتي العنوان ولوحة لغلاف .

تسعى هذه الدراسة للكشف عن دلالة الالوان وسيميائيتها في النتاج الابداعي للراوية العراقية في عتبتي العنوان ولوحة الغلاف ، اذ ان اللون اداة اساسية للتصوير الفني، ويجاوز دوره الدلالة المعجمية الى المعاني الايحائية فهو من العناصر الحية في بنية النص الادبي وله مفعول البرودة والحرارة في تدرج متناه من الضعف والشدة في كل حالة نفسية تستدعي استجابة معينة ، وهذه الاستجابة تخضع لثقافات البيئة المعيشة ، مما جعل الرواية العراقية تمثل لوحات فنية تحمل هموم الفرد والمجتمع ، وزاد السرد شعرية وجمالية ليصبح اللون يحمل سرا عميقا رفعه الى مصاف الرمز ، فتكون حاسة البصر مجال الحركة لتتبع ظواهر الاشياء كما في الواقع وتنعكس الى عالم الشعور والاحساس للكشف عن الصلة والتواشج مع عالم الالوان ، وقد تقسّم البحث على تمهيد درست فيه فاعلية اللون في النص الأدبي ، تلاه مبحثان : الأول في دلالة اللون في العنوان ، وشمل دراسة هذه الدلالات واشتغالاتها في عنونة الرواية العراقية ، والثاني كان في تتبع هذه الدلالات في لوحة الغلاف ، وقد قسّمته على الصورة واللون ودلالتهما مجتمعين .

Summary/

Research ti

tle : the color indication in the Iraqi novel , a semiotic approach in the title and cover plate .

In the research , I present the study of the color indication and its semiotic in the title and the cover plate , the research is divided into astudy of the effectiveness of color in the litrary text , followed by two sections , the first one was about the color indication in the title , in cluding the study of these indication and concerns in addressing the Iraqi novel , the second one was to follow these indications in the cover plate and divided it on the image and color and their indication .

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه تعالى نستعين والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين محمد وآله الطاهرين...وبعد

إن الرواية هي الجنس الأدبي الأكثر ملامسة للفرد والمجتمع ، وما يعانيه وما يطرأ عليه من تقلبات ، وإن ما يؤكد هذه الفرضية هي أن الرواية واحدة من نتائج الثورة الصناعية التي قامت في أوربا في عصر النهضة ، إذ سعت –آنذاك– إلى تصوير طبقات المجتمع الأوربي ولاسيما الطبقة البرجوازية .

إن هذه العلاقة التلازمية بين الرواية والإنسان وسّعت من نطاق الاشتغال اللوني ؛ لأن الدلالة اللونية ماثلة في حياة الإنسان ووجدانه ، ولما كانت العتبات النصية وخصوصاً (العنوان والغلاف) هي المحطة الأولى للقارئ التي تبدأ منها القراءة ويشرع معها التأويل ، صار الاشتغال اللوني سمة من سمات الرواية العراقية ، الأمر الذي حفّزني لهذه الدراسة التي رُمت من خلالها التعرض إلى دلالة اللون في حدود هذه العتبات وانعكاساتها السيميائية على النصوص ، وقد دعا الموضوع إلى أن ينقسّم على مبحثين : الأول كان في عتبة

العنوان ، إذ درست فيه دلالة الألوان في عنوانات الرواية العراقية ، وكذلك تعرضت لمظاهر هذا الاشتغال اللوني وخصوصاً (القلب اللوني) لما له من دلالة عميقة وبعد جمالي ، أما المبحث الثاني فقد خصصته لسيميائية لوحة الغلاف ، وقد درست في هذا المبحث عناصر لوحة الغلاف من الصورة واللون ودلالتهما السيميائية الناتجة عنهما ، وقد سبق ذلك كله تمهيد تعرضت فيه إلى فاعلية اللون في النص الأدبي ، وانتهى البحث بخاتمة عرضت فيها أهم ما توصّل إليه البحث من نتائج .

وإنني في بحثي هذا لا أدعي الكمال ؛ لأن الكمال لله وحده ، وحسبي فيه جدية المحاولة في إماطة اللثام عن هذا الموضوع ، وأرجو أن يكون له دور في الفائدة العلمية والبحثية لمن يقرأه .

الباحث

التمهيد/ فاعلية اللون في النص الأدبي :

تُعد الألوان صورة من صور الحياة ، فهي محيطة بنا من كل جانب وفي كل مفصل من مفاصل حياتنا ، فلا يمكننا أن نتخيّل العالم بلا ألوان ، وقد انتقلت هذه الأهمية الكبرى للألوان من الواقع المعيش إلى الأدب والفن منذ القِدَم ، إذ " عنيت العربية عناية كبيرة بالألوان ، وذلك على ألسنة شعرائها وخطبائها فيما وصل إلينا من رواة أخبارهم في العصر الجاهلي ، واشتدت هذه العناية في عصور ازدهار الحضارة العربية والإسلامية في المشرق والمغرب والأندلس..."() ، وتظهر عناية العرب بالألوان الأساسية والفرعية فيما أطلقته على هذه الألوان من أسماء وصفات() ، كما تظهر هذه الأهمية للألوان في مصنفاتهم الأدبية ، نذكر منها كتاب (فقه اللغة) للثعالبي الذي غطت دراسته للألوان نصف كتابه() ، وغيرها من الكتب والمصنفات .

وإذا ما انتقلنا إلى عصرنا الحاضر نجد أن اللون لا يقف عند حدود دلالته فحسب ، بل راح يقيم علاقات لغوية داخل النصوص ، حتى صارت التجربة الأدبية الحديثة تحتفي باللون بشكل لافت للنظر وعلى كل المستويات() ، حتى باتت الألوان " من أغنى الرموز اللغوية التي توسع مدى الرؤيا في الصورة الشعرية ، وتساعد على تشكيل أطرها المختلفة ، بما تحمل من طاقات إيجابية وقوى دلالية وبما تحدثه من إشارات حسية وانفعالات نفسية في المتلقي..."() ، لذا صار اللون بثقله هذا أساساً من أسس أي عملية أدبية ، حتى أن الأديب لا يجد مندوحة في الإفلات من سطوة الألوان ودلالاتها .

المبحث الأول /دلالة اللون في عتبة العنوان :

إن النص الأدبي هو مركب من عناصر لابد منها ، يعد تضافرها معادلة تتولد منها المادة الأدبية وجماليتها ، أولها العنوان وآخرها النص ، فالعنوان يحمل دلالات المتن بشكل أكثر تكثيفاً ؛ وقد عرَّفه ليو هوك بأنَّه : " مجموع العلامات اللسانية التي يمكن أن ترسم على نص ما من أجل تعيينه ، ومن أجل أنْ تشير إلى المحتوى العام ، وأيضاً من أجل جذب القارئ"() ، فهو –وقتئذ– نظام سيميائي ذو أبعاد دلالية رمزية تغري القارئ بملاحقة دلالاته ومحاولة فك شفراته() ، أي أنَّه طاقة دلالية تعين المتلقي في القراءة والتأويل ، لذا صار نظاماً دلالياً رمزياً له بنيته السطحية ومستواه العميق مثله مثل النص تماماً() ، هذه الدلالات التي يحملها العنوان هي رسائل يروم من ورائها الكاتب أموراً عدة : منها تواصلية –ولعلها الأهم– ، وأخرى أدبية جمالية ، يسعى الكاتب من خلالها إلى جذب المتلقي واستفزازه ومن ثم زجه في غياهب النص تاركاً إياه بين القراءة والتأويل .

لقد صار العنوان " مرجعاً يتضمن بداخله العلامة والرمز وتكثيف المعنى بحيث يحاول المؤلف أن يثبت فيه قصده برمته كلياً أو جزئياً ، إنَّه النواة المتحركة التي خاط المؤلف عليها نسيج النص..."() ، وتتمثل تواصلية العنونة من خلال ما تحمله من رسالة لغوية تعرِّف بهوية النص وتحدد مضمونه وتجذب القارئ إليه وتغريه بقراءته ، فهي الظاهر الذي يدل على الباطن ومحتواه() ، وبناءً على ذلك لا يمكننا عدّ العنوان عنصراً طارئاً على النص ؛ لأنه يُمثّل الأداة التي يمتلكها المتلقي ، والتي يتمكن من خلالها من فهم النص الفهم الصحيح ، فهو العتبة الأولى التي يبدأ بها إلى سبر غور النص .

وقد برزت أهمية اللون في التجربة الأدبية على صعيد العنوان ، حتى ظهر على الساحة الأدبية ما اصطلح عليه بعض الباحثين بـ(العنوان الملون) ، وهو العنوان الذي يتشكل كلياً من اللون الذي تمتد دلالته إلى المتن ، نظراً للعلاقة التلازمية بين المتعاليات ونصوصها() ، لذلك سأعمد في دراستي هذه إلى تتبع دلالات الألوان واشتغالاتها في عنوانات الرواية العراقية في منأى عن دراسة تفصيلات العنوان نفسه والبحث في أهميته ، وحصر هذه الدراسة في حدود العلاقة بين العنوان واللون وانعكاسات ذلك سيميائياً على متن الرواية .

١–دلالة الألوان وسيميائيتها :

أ/دلالة اللون الأسود :

لقد حظي اللون الأسود بمكانة مهمة في عنونة الرواية العراقية ، لما لهذا اللون من دلالات متعددة ومتناقضة حتى ، إذ أن دلالته متغيّرة بحسب المشاعر الشخصية للمبدع() ، فمن المعاني التي دل عليها اللون

الأسود هي المعاني السلبية والمنفّرة ؛ لأنه " رمز الحزن والألم والموت ، كما أنه رمز الخوف من المجهول ، والميل إلى التكتم ، ولكونه سلب اللون يدل على العدمية والفناء "() ، فمن الروايات العراقية التي استثمرت هذه المزية في اللون الأسود هي رواية (الحقد الأسود)() ، لقد أجاد الكاتب في تشكيله لعنوان روايته هذا ، إذ جمع بين الحقد والسواد ليضع المتلقي وهو في العتبة الأولى أمام مشهدية تشاؤمية يسودها الموت والأحقاد ، تدور أحداث هذه الرواية حول مجزرة ٨ شباط ١٩٦٣ ، إذ سعى الراوي إلى رصد الأحداث الدموية والقمع الذي أطاح بالشيوعيين ، وما عانوه في معتقلات البعث من هوان وذل وتعذيب ، فهي رواية سياسية وفي الوقت عينه هي رواية سجون تلاحق حال المثقف آنذاك وتسعى لتصوير مأساته وهو يواجه هذه الأقدار السوداء ، لذا فإن هذا اللون قد ألقى بظلاله على مفاصل هذه الرواية بأكملها .

أما في رواية (الصندوق الأسود)() ، فقد وظّفت الكاتبة دلالة اللون في عنوان روايتها التي تتحدث عن حكايتين متوازيتين لامرأتين مختلفتين ، هاتان المرأتان يجمعهما هاجس واحد وهدف واحد هو الكتابة ، إذ التقت وجهات نظرهما حول الفن الذي يعادل الحياة ويرمم ما عبثت به الأقدار ، وقد عمدت الكاتبة إلى الرمز من خلال (الصندوق الأسود) الذي اتخذت منه رمزاً للموروث الاجتماعي الذكوري الذي حط من شأن المرأة ، وقد تمكنت هاتان المرأتان من كسره والخلاص منه ، هذه الرمزية التي وظفتها الكاتبة متأتية من إمكانية تحوّل اللون إلى رمز إذا ما كانت دلالاته كامنة في وعي المجتمع وموروثاته الاجتماعية والفكرية() .

ومن الدلالات الأخرى للسواد هي دلالته على الجمال() ، وخصوصاً سواد العين ، إذ ربط الأدباء –منذ القِدم– العيون باللون الأسود " فوُصفت العيون بالسود ، وإذا كانت العيون موطن الجمال والإبصار والإستشراق والتأمل والاتساع ، فإن العيون السود قد أخذت دلالات متغيرة ، وارتباط السواد بالعيون منحها مسحة جمالية...فتكاد تكون العيون السود رمزاً عاماً..."() ، بمعنى أن اللون الأسود باجتماعه مع العيون صار رمزاً عاماً للأنوثة والجمال ، وقد استثمرت الكاتبة ميسلون هادي هذه السمة في اللون الأسود في عنوان روايتها (العيون السود)() ، يُمثل هذا العنوان وحدة دلالية تجعل القارئ وهو يقف عند عتبة الرواية بأنه يقف إزاء أنثى هي محور هذه الرواية وقضيتها ، تحكي هذه الرواية حياة (يمامة) الفتاة الحسناء التي تركت التعليم بسبب الفقر وامتهنت الرسم للكسب ، تجري أحداث هذه الرواية في إحدى مناطق بغداد في زمن الحصار الاقتصادي الذي فُرض على العراقيين في تسعينيات القرن المنصرم ، تعيش هذه الحسناء في وجدانها جدلية الصراع بين الماضي والحاضر ، ثيمة الرواية قائمة على الصراع غير المتكافئ بين الأنوثة والجمال وقساوة الحياة وضنك العيش ، حتى أن هذا العنوان أضحى معادلاً موضوعياً مع هذه الثيمة .

ب/ دلالة اللون الأزرق :

إن للزرقة دلالتين متغايرتين ، فهي تدل على الهدوء والاسترخاء والحب والنقاء() ، وتدل أيضاً على القبح والحقد والقلق والخوف() ، ونظراً لارتباط الرواية العراقية منذ عصر الريادة بالتقلبات السياسية والمجتمعية وما ينتج عن هذه التقلبات من مآس إنسانية ووجودية ، فقد اقتصرت سيميائية اللون الأزرق في عنواناتها على الجانب السلبي حصراً –وذلك في حدود تتبعي– ، تحكي رواية (كانت السماء زرقاء)() مشاعر التداعي والضياع ، إذ يعاني بطل الرواية من مشاعر الضياع وفقدان الذات ، فهو منذ بداية الرواية وحتى نهايتها في حالة هروب مستمر سعياً للخلاص من هذا الضياع ومن سطوة القدر ، فهو شاب مثقف وأديب ، يشعر برغبة ملحّة في الهروب من كل شيء ، وقد تركت سلبية اللون الأزرق أثرها على طول الرواية ابتداءً من عتبة عنوانها ، إذ ورد بسلبيته هذه أكثر من ثلاثين مرة في مواضع وأحداث متفرقة .

جـ/دلالة اللون الأخضر :

إن للخضرة دلالات إيجابية كثيرة ، لعل أهمها دلالتها على الحياة والنعيم كما تدل على البشرى والراحة النفسية() ، لذا فإن الرواية التي يعتليها عنوان متشكّل من هذا اللون تكون –عادةً– رواية هادئة تدعو إلى التفاؤل والتأمل ، نسوق لهذه الفرضية مثالاً رواية (الوادي الأخضر)() ، ورواية الخيال العلمي (البقعة الخضراء)() ، فإن مشاعر الراحة والاطمئنان والتفاؤل قد سادت أجواء هذه الروايات حتى في مراحل الصراع والتأزم .

د/ دلالة اللون الأحمر :

تعددت دلالات اللون الأحمر على مستوى الاشتغال الأدبي ، هذه التعددية لا تغادر في مجملها المعاني القهرية ، إذ يدل هذا اللون على الدماء والحروب والمشقة والشدة() ، لذا فقد شاعت في الاستعمال الحديث عبارة (الخط الأحمر) التي تحمل دلالات المنع والخطر() ، هذه المعاني وظّفتها رواية (خط أحمر)() ، ثيمة هذه الرواية هي الحرب العراقية الإيرانية ، تسلط هذه الرواية الضوء على هذه الحرب وما خلّفته من تردٍ على مستوى الفرد والمجتمع ، لذا صار هذا العنوان بمثابة المعادل الموضوعي لهذا العرض السردي ذي الأحداث الدموية والمشاهد المأساوية المختلفة ، فإن (الخط الأحمر) فيه بعد سيميائي على خطورة الحروب على المجتمعات ، علاوة على إشارة الكاتب بشكل موارب –فيما يبدو لي– إلى خطورة الاعتراض على هذه الحرب في ظل حكومة البعث المستبدة .

ولقد شاع اللون الأحمر على الصعيد السياسي في القرن العشرين ، وذلك بعد أن اتخذته الشيوعية العالمية رمزاً لها() ، اتخذت رواية (السراب الأحمر)() من هذا الرمز السياسي بعداً سيميائياً وهي تلامس فلسفة الحب والحرية من خلال سردها لثيمة اغتراب المثقف الشيوعي وما كابده من قتل وتشريد وتهميش .

هـ/ دلالة اللون الأبيض :

لقد كان اللون الأبيض " أحب الألوان إلى قلوب العرب ، وأكثرها قرباً من نفوسهم ، وانسجاماً مع طبائعهم ، وكأنهم يرون فيه أبهى الألوان وأشفها وأحلاها "() ، فهو يدل على الطهر والبراءة كما يدل على النقاء والتفاؤل والأمل والتسامح() ، وقد استثمرت رواية (الأجنحة البيضاء)() هذه المزية في اللون الأبيض ، إذ تحدثت هذه الرواية عن أزمنة مختلفة من أزمنة بغداد وخصوصاً بعد عام ٢٠٠٣ ، وما طرأ على الشعب العراقي من تقلبات اجتماعية واقتصادية وسياسية ، وقد حققت هذه الرواية فرادتها وتميزها من أنها لم تكتف بملاحقة الظواهر السلبية التي شاعت في الشارع العراقي بل راحت تقترح الحلول والعلاجات ، فضلاً عن استعانتها باللون الأبيض وهي تدعو العراقيين وتحثهم على التفاؤل والمحبة والتسامح والأمل ، إذ صوّرت كرم العراقيين وتسامحهم وطيبتهم وأن هذا كاف للخلاص من هذا التردي الذي ضرب بأطنابه عموم البلاد .

٢-قلب الألوان :

هي عملية مغادرة اللون لدلالته القاموسية ، وذلك من خلال " تحويل اللون إلى لون آخر "() ، وإن هذا الأداء يزيد النص جمالية وبعداً دلالياً يثري العملية الإبداعية() ، وإن اللافت للنظر أن لجوء الرواية العراقية إلى هذا الاشتغال في عتبة عنواناتها جاء في حدود الرؤية السوداوية والسلبية –وذلك في حدود قراءتي– ، وهذا متأت من الواقع المتردي الذي سعت الرواية العراقية إلى رصده ، ففي رواية (الحقول البيضاء)() ، يلجأ الكاتب إلى هذا التلاعب اللوني المتمثل في انتزاع خضرة الحقول ، وأن دلالة اللون الأبيض لا تقتصر على معاني النقاء والحياة فحسب ، وإنما له دلالات سلبية أهمها دلالته على الموت والفناء() ، فإن اصطباغ هذه الحقول بالبياض هو نذير شؤم أعلنه الكاتب في تشكيل عتبة عنوان روايته ليضع المتلقي عند حدود ثيمتها القائمة بشكل شبه كلي على الحروب والقتل والدمار .

وكذا الحال في رواية (وشم ناصع البياض)() ، فهي رواية قائمة على موضوع أساسي هو ملامسة فلسفة الموت والفناء وملاحقة تجلياته في المجتمع العراقي ، إذ عمد الكاتب إلى تجريد الوشم من لونه المعهود وجعله مصطبغاً باللون الأبيض دلالة على التقدم بالعمر والاقتراب من الموت .

ويتجلى هذا النمط من الاشتغال اللوني بشكل لافت للنظر في رواية (مطر أسود مطر أحمر)() ، تدور أحداث هذه الرواية حول الأثر الذي تركه الحصار الاقتصادي الذي فُرض على العراقيين وحرب أمريكا على العراق في مطلع تسعينيات القرن الماضي ، تصور هذه الرواية معاناة العراقيين وهم يكابدون الخوف والجوع والتشريد ، تجسدت هذه الثيمة في وعي بطلة هذه الرواية (رهام) وهي تصارع هذه المكابدات ، يلقي هذا القلب اللوني بظلاله على مفاصل الرواية وأحداثها جميعاً ، إذ عمدت الكاتبة إلى تلوين المطر بالأسود دلالة على دخان الحروب والأحمر دلالة على الدم والقتل ، ونلحظ من خلال قراءة هذه الرواية بأن وعي الساردة بهذا التلوين حاضراً في أغلب مواقف الرواية وأحداثها ، فلنتأمل قولها الذي جاء في بداية الرواية والذي يمثّل الوجه الآخر لعنوانها والمفسر له : " هذه هي مياه دجلة ، لونها بني غامق يميل إلى الاحمرار ، فهل تسللت إليها قطرات من الدماء التي سالت على أرضنا..."() ، فقد اتخذت الكاتبة من لون المطر المغاير للونه الأصلي رمزاً للحالة التي وصل إليها العراق في فترة الحرب والحصار ، وبالنتيجة هو كشف للحالة النفسية التي تعيشها (رهام) التي تحوّلت المشاهدات أمامها إلى دخان ودم جراء الحرب والجوع والقتل ، فلنقرأ هذا النص الذي تنعكس فيه مشاعر الضياع التي انتابتها " إنه المطر الخفيف المتواصل ، نثيث المطر ، قطرات نقية تنعش النفوس والأرض والزرع ، تطلعت مرة أخرى إلى القطرات المنحدرة من زجاج النافذة ، فوجدتها سوداء ، فهل يتغير لون المطر ؟ هذا مطر أسود وربما تشهد أجزاء أخرى من العراق مطراً أحمر..."() ، فلما كان العنوان هو الوجه الآخر للمتن ، صار عنوان هذه الرواية بمثابة البؤرة التي تتحرك فيها أحداثها والرؤية التي تبنتها الشخصية الرئيسة فيها ، وقد ساعد هذا الاشتغال اللوني في بلورة هذه الرؤى وشحنها بالطاقات الدلالية والجمالية .

وتستغل رواية (الصبار الأزرق)() دلالة الزرقة على الخوف والحقد لتصبغ به نبات الصبار بدلاً من لونه الأخضر ، فكأن العنوان صار شاهداً على جدليتين متقاطبتين جدلية الحياة المتمثلة بالصبار الأخضر ، وجدلية الموت المتمثلة بالصبار الأزرق ، هذه الدلالات يُمثّل اجتماعها موضوع الرواية التي ترصد أحداث انتفاضة آذار ١٩٩١ ، وما أعقبها من معاناة وقتل وتشريد ، تلاحق هذه الرواية الممارسات الحاقدة وغير الإنسانية التي مارستها مختلف طبقات الشعب من الأحزاب واللصوص وغيرهم ، في مشهدية سردية خلطت الواقع بالخيال وقد طغى عليها اللون الأزرق بدلالاته المشحونة بالخوف والترقب والقلق .

وقد استعانت رواية (أقمار عراقية سوداء في السويد)() بدلالة اللون الأسود الدال على التشاؤم لتضفيه على القمر وتقلب لونه المعهود ، ترسم هذه الرواية صورة ملؤها التشاؤم والسوداوية لعائلة عراقية تهاجر إلى السويد ، فهي بمثابة رصد واقعي معيش للانهيارات النفسية والأخلاقية التي تطرأ على بعض المهاجرين بمرور الوقت .

المبحث الثاني/ سيميائية لوحة الغلاف :

تتمثل أهمية النصوص المحيطة في كونها الثريا التي تضيء النص وتمكن القارئ من فك شفراته وفهم مكنونه ، دعت هذه العلاقة السيميائية بين النصوص ومتعالياتها إلى أنْ تكون ملتحمةً التحاماً عضوياً متيناً من خلال " شدة ارتباط الخارج بالداخل ، فالأنساق لا بد أن تكون متلازمة وذات إشعاع ضوئي يبثه الواحد إلى الآخر..."() ، حتى تتحقق هذه الوظيفة الموكلة بها .

يعد غلاف الرواية واحداً من أهم هذه العتبات التي ذكرها (جينيت) بوصفه نصاً موازياً للنص الأصلي() ، كونه المؤشر الدال على الأبعاد الإيحائية للنص ؛ لذا فقد صار الغلاف معادلاً موضوعياً للنص من خلال هذه الوظيفة الموحية() .

إنَّ غلاف الرواية " فضاء مكاني ؛ لأنَّه لا يتشكل إلا عبر المساحة ، مساحة الكتاب وأبعاده ، غير أنَّه مكان محدود لا علاقة له بالمكان الذي يتحرك فيه الأبطال..."() ، ويقع الغلاف –من حيث الماهية– في منطقة حرجة وخطرة ؛ كونه يمثل الخط الفاصل بين اللغة والأيقونة ، فهو أيقونة تنفتح دلالياً على اللغة وبيان مكنونها من خلال توظيف إشاراته التي صارت تحريضاً للقارئ على القراءة وإعطائه آليات القراءة والتأويل ، لذا بات من أهم ما يلفت انتباه المتلقي ، بما يحمله من شحنات دلالية وإشاراتية تدفع إلى اكتشاف ماهية النص ، ومن هنا صار للغلاف ووظيفتان : إغرائية تدعو إلى الاقتناء ، وأيقونية تدعو إلى التعرف والفهم() ، وعليه تحول الغلاف مع مرور الزمن وخصوصاً في مرحلة التجديد من كونه مجموع خطوط وتشكيلات ورسوم وزينة إلى كيان دلالي يشير إلى أبعاد النص وروحه وفحواه() .

تتكون لوحة الغلاف من عدة وحدات غرافيكية ، أبرزها بل وأهمها هي : الصورة ، واللون :

١–الصورة :

تمثل الصورة أهم المعادلات الموضوعية للحكاية ، إذ تختزل في طياتها بؤرة النص ، فهي تشتغل " نحو تكوين مجموعة من المفاهيم وتوليد منظومة من الإرساليات تقدم إمكانيات للتخاطب عبر متوالية مرئية لها القدرة على تشكيل إدراكات جديدة حول ظاهرة معينة ، أو تكوين فكرة حول قضية مخصوصة..."() ، أي بمعنى آخر صارت الصورة المرئية تحكي ثيمة النص من خلال التأمل فيما تبثه من إشارات يقصدها المبدع ، ومن هنا صارت الصورة تتميز من باقي المعطيات الدلالية –فيما يراه السيميلوجيون– من خلال ما تحمله من أيقونات

تشير إلى ما تعتليه من نصوص ، لذا يمكن عدها من أهم مولدات المعنى() ، وعليه فقد أصبحت صورة الغلاف تخلق " تشكيلاً واقعياً يشير مباشرة إلى أحداث القصة ، أو على الأقل إلى مشهد من هذه الأحداث ، وعادة ما يختار الرسام موقفاً أساسياً في مجرى القصة يتميز بالتأزم الدرامي للحدث ، ولا يحتاج القارئ إلى كبير عناء في الربط بين النص والتشكيل..."() ، ويجمل بنا أن نورد هنا قول ابن حزم ٤٥٦هـ في الصورة وأثرها في النفس ، إذ يقول : " إن للصورة لتوصيلاً عجيباً بين أجزاء النفوس النائية..."() .

٢-اللون :

يعد اللون ذو أهمية بالغة تتمثل في وظيفته السيكولوجية ، فهو يبوح عما تخفيه النفس الإنسانية ، لذا صار لغة بصرية مقابل اللغة المحكية أو المقروءة ، فهو -حينئذ- على قدر كبير من الخطورة ؛ لاتكائه على البعد الميتافيزيقي في التوظيف() .

يُعد اللون من أهم عناصر تشكيل الصورة ؛ لما يشتمل عليه من الدلالات الفنية وغير الفنية كالدينية والنفسية والاجتماعية ، لذا صار ذا تأثير قوي على العواطف والأحاسيس والانفعالات() ، من خلال ما تبثه للعين من مرسلات مفعمة بالدلالات الخفية ، ومن هنا فإنَّ اللون يمثل رباطاً متيناً بين أطراف العملية الإبداعية بوصفه معادلاً موضوعياً بينه وبين المتن() ، لذا يتحتم على المبدع الذي يروم إعطاء لوناً لغلاف روايته أن يكون محيطاً بدلالة كل لون من الألوان وإيحائيته ومدى موافقته لعنوان الرواية وثيمة الحكاية() ، على أنَّ ما سلف ذكره لم يكن -عند الروائيين كلهم- بمثابة القاعدة المطردة ، فقد نجد جملة منهم جاءت أغلفة رواياتهم اعتباطية من حيث الصورة واللون ، بمعنى أنهم لم يقيموا وزناً لهذه السمة التي تتمتع بها هذه الأشكال وخصوصاً في الرواية التقليدية القديمة ، إذ كانت أغلفة رواياتهم حلية شكلية ليس أكثر ، وهذا راجع -فيما يبدو- إلى أنَّ الصورة واللون والتشكيل وغيرها هي أمور ذات بعد ذاتي ، وبما أنَّ الروائيين متباينون في ذاتيتهم جاء هذا التباين في رواياتهم من حيث تشكيل الغلاف .

وسنحاول استقراء هذه الفرضيات التي أشرنا إليها على الرواية العراقية -محل البحث- ومقاربتها مقاربة سيميائية .

ففي رواية (عين الدود)() ، فإنَّ الثيمة الرئيسة التي عرضتها الرواية هي الخراب الذي لحق بالعراقيين في عهد نظام حزب البعث ، وكيف مارس أزلام النظام -آنذاك- ضروب التعذيب والترويع ، وقد أطلق عليهم الكاتب لقب (الدود) ، لوحة الغلاف تتكون من قسمين يهيمنان كلياً على فضائها ، القسم الأول صغير وهو

صورة عبارة عن مربع صغير بداخله صور الدود والحشرات ، التي كانت ترمز للسلطة ، وباق اللوحة طغى عليها اللون الأبيض تماماً ، واللون الأبيض يشير عادةً إلى النقاء والطهر والعفاف والسلام() ، وكأنَّ الروائي رام إيصال فكرة للمتلقي هي أنَّ النظام لا يستطيع أن يمسخ الهوية العراقية النقية ، وهذا النقاء سيتحول إلى خراب ودمار إذا ما دبَّ هذا الدود في أوصاله ، وهذا هو فعلاً ما سعى الكاتب إلى إثباته في روايته هذه .

أما رواية (وحدها شجرة الرمان)() ، فقد تبنَّت الحديث عن فلسفة الحياة والموت ، وقد اتخذ الروائي من شجرة الرمان رمزاً للحياة ، تكونت لوحة الغلاف من صورة لثمرة الرمان ، وهي صورة تبدو متهرئة في إشارة – فيما يبدو– إلى أنَّ الحياة في العراق باتت متعثرة ولا تبعث على الأمل ، في حين شغل اللون الأصفر المساحة المتبقية من اللوحة ، واللون الأصفر جاء متلائماً تماماً مع ثيمة الموت التي شغلت الرواية ؛ لأنَّ أهم دلالات اللون الأصفر هي المرض والموت والشقاء() .

وفي رواية (وجوه في ذاكرة رجل ميت)() ، يروي السارد تفاصيل عن حياة السجين السياسي في عهد البعث من خوف وجوع وتعذيب وهوان ، وينتقل الكاتب بعفوية فنية إلى مرحلة ما بعد سقوط البعث ، وما شهده العراقيون في هذه المرحلة ، هذه المعاناة جاءت ماثلة في وعي بطل الرواية الذي عاش في وجدانه صراع الزمنين الماضي والحاضر ، صورة الغلاف شغلت أكثر من نصف مساحته ، وكانت صورة لبقايا رجل بالكاد يمكن تمييز رأسه ، وهي إشارة إلى بطل الرواية الذي عانى مشاعر الضياع وفقدان الهوية ، فهذه الصورة هي معادل موضوعي لثيمة هذه الرواية ، فضلاً عن طغيان اللون الأصفر الداكن على الغلاف ، واللون الأصفر يحمل دلالات كثيرة أبرزها الخوف والموت والمرض() .

أما رواية (الشاكرية)() ، فهي رواية تاريخية تسرد تفاصيل مدينة الشاكرية في بغداد ، صورة الغلاف صورة فوتوغرافية لأثر من آثار هذه المدينة ، وإنَّ هذا النمط من الصور قليل في الرواية بشكل عام() ؛ لأنَّه ينقل واقع الرواية بشكل واضح من دون أنْ يترك فسحة للتأمل ، وكأنَّ الشاعر والروائي (كريم العراقي) كان على دراية بهذا الأمر فعمد إلى إضافة صورة مجموعة من الغربان في أعلى الغلاف ، إذ أضافت للغلاف –مما لا شك فيه– بعداً سيميائياً كبيراً في إشارة إلى من يتربص سوءاً بالعراق ومقدَّراته ويحاول العبث في مستقبله من سياسيين وأجندات داخلية وخارجية .

وفي رواية (الكافرة)() ، نقرأ قصة حياة (فاطمة) بطلة الرواية التي عاشت حياتها في مدينة نائية مع التكفيريين والإرهابيين الذين فرضوا عليها معتقداتهم حتى أرغموها على الزواج من أحدهم ، وبعد موت زوجها بعملية انتحارية تقرر الفرار إلى أوربا ، وعندما تصل إلى بروكسل تتولد في نفسها ردة الفعل جراء هذا النقيض

بين البيئتين المتطرفة والمنفتحة ، فتقرر خلع النقاب وتتحول إلى فتاة ليل تعتاد ارتياد الملاهي والحانات وإقامة علاقة جنسية كثيرة ، إلى أنْ تقع في علاقة حب معقدة للغاية ، غلاف الرواية بكل تفاصيله يبوح بهذه الثيمة ، فالغلاف مصبوغ كلياً باللون الأحمر الذي جاء موافقاً لهذه الحكاية المعقدة ، فهو يشير –بالعادة– إلى الحركة والاضطراب والصخب والانتقام والتمرد() ، كما ويشير أيضاً إلى النزوة والجنس() ، وهذه الأمور قد تحققت كلها في هذه الرواية ، علاوة على صورة الغلاف التي كانت عبارة عن رسم لامرأة شبه عارية ، مما دفع بهذه الصورة وهذا اللون إلى أنْ يشكلان معادلاً موضوعياً لمتن هذه الرواية .

أما رواية (قياموت)() فإن غلافها غلاف صادم يوازي صدمة العنوان ، ويعكس موضوع الرواية التي تناول فيها الكاتب فلسفة الموت والنشور بسردية فنية مفعمة بالخيال والشعرية ، صورة الغلاف شغلت مساحته تماماً ، وهي صورة لأربعة رجال متناظرين ومتكاتفين في حالة صراخ ، وتبدو عليهم آثار التحلل البيولوجي في إشارة صريحة على أن هؤلاء الرجال ما هم إلا جثث أو مومياوات ، عكست هذه الصورة فحوى الرواية بفنية عالية ، وقد مزجت بين الواقعية والتجريدية في إشارة إلى أنَّ عوالم هذه الرواية هي واقعية وميتافيزيقية في آن واحد.

أما غلاف رواية (من أنا؟)() فقد طغى عليه اللون الأسود بشكل كامل ، وهذا اللون يدل على الحزن والمرارة وثورة النفس على الظروف والمبالغة في البحث عن المطلق() ، وهذه المشاعر هي عينها التي عاشتها (أسماء) بطلة الرواية وغيرها من الشخصيات الأنثوية في هذه الرواية ، إذ تدور أحداث هذه الرواية المليئة بالحزن حول الظلم والتعسف الذي تعاني منه المرأة في مجتمعاتها وتشظي الذات وضياع الهوية ، ويتوسط الغلاف نصف وجه امرأة بالكاد يمكن رؤيتها لطغيان اللون الأسود على اللوحة ، في إشارة واضحة على التردد والضياع .

أما رواية (سعيدة هانم ويوم غد من السنة الماضية)() ، فتسرد حياة أختين هما (سعيدة ومليكة) ، يعيشان في بيت واحد ، الأولى واقعية والأخرى رومانسية حالمة ، وفي حدود هذه الجدلية تدور أحداث هذه الرواية في فلك إيقاعية الحياة المنزلية بأجواء هادئة بعيدة عن صخب الشارع ، وقد اصطبغ غلاف الرواية باللون الأزرق ، وقد أصابت الكاتبة والناشر في اختيار هذا اللون الذي جاء متناسقاً ورؤى هذه الرواية ؛ لأنَّ من دلالات اللون الأزرق السكون والهدوء والطمأنينة() .

أما رواية (ذئبة الحب والكتب)() ، فخلاصتها ببساطة هي الدعوة إلى الحب واتخاذه سلاحاً لمواجه الحياة ، وقد سعى الكاتب لترسيخ ما تبناه من خلال أحداث هذه الرواية ، جاء غلاف الرواية مصطبغاً كلِّياً باللون الأخضر ، والأخضر لون يريح النفس ويبعث على الحب والأمل والتفاؤل فهو لون الحياة والطبيعة() ، وإنَّ الصفة في هذا اللون أزلية غير طارئة عليه ، يقول الإمام علي() : " ألا أنَّ حياتكم حلوة خضراء..."() .

أما رواية (قشور بحجم الوطن)() فتحكي اغتراب الإنسان عن بلده وما يسفر عنه من تشظٍ للذات وضياع للهوية ، جاء غلاف هذه الرواية متضافراً مع هذه الثيمة الذاتية ، فقد توسطت الغلاف صورة هلامية للكرة الأرضية ، وتظهر فيها صورة إنسان عديم الملامح وهو يسبح فيها تائهاً وقد سالت منه الدماء ، ومحيط الغلاف قد اصطبغ كلياً باللون الأصفر وبشكل متدرج ، وعلمنا مسبقاً أنَّ للون الأصفر دلالة على الشقاء والخوف والتيه() .

من خلال هذا العرض المبسط اتضحت العلاقة التلازمية بين المؤشرات البصرية واللغة ، وبالتحديد العلاقة بين الغلاف بمكنوناته والمتن ، إذ صار مؤشراً على الموضوع الرئيس كاشفاً عن ماهيته وفحواه .

الخاتمة /

توصل البحث لجملة من النتائج ، لعل أهمها ما يأتي :

١–إن لكل لون دلالته النفسية والانفعالية التي تنعكس على النص الأدبي الذي يوظفها استثماراً لهذه الدلالات .

٢–لقد وظفت الرواية العراقية في عنواناتها أغلب دلالات الألوان ، وإن هذه الدلالات قد انعكست على ثيمتها وموضوعها العام ، وهذا الانعكاس تفسّره العلاقة القائمة بين النص والعنوان .

٣–تُعد عملية (قلب اللون) من الاشتغالات اللونية المهمة التي لجأ إليها بعض الروائيين في عنونة رواياتهم ، ولم تغادر هذه الاشتغالات في مجملها النظرة السوداوية أو التشاؤمية ؛ لأن الرواية العراقية سعت منذ ريادتها إلى ملاحقة واقع الإنسان المتردي في المجتمع ، وإن (قلب اللون) قد منح النص بعداً دلالياً عميقاً علاوة على بعده الجمالي .

٤–لقد كان لغلاف الرواية بعداً سيميائياً مهماً وخصوصاً في التجارب الروائية الجديدة ، إذ يُشكّل اجتماع الصورة واللون كياناً مرئياً يمثّل معادلاً موضوعياً للرواية .

والحمد لله رب العالمين